سؤال الذات ومرايا الآخر في رواية ممدوح عدوان
" أعدائي "

د. عادل الأسطة

تمهيد

ممدوح عدوان هو كاتب سوري من مواليد قرية قيرون (مصياف) في العام ١٩٤١. وهو شاعر وكاتب مسرحي بالدرجة الأولى، وقد بدأ ينشر أعماله منذ عام ١٩٦٦. وكتب القصة القصيرة والرواية وترجم العديد من الكتب، غير أنه لا يعرف روائياً أو كاتباً قصصياً، قدرَ ما يعرف شاعراً وكاتباً مسرحياً ومترجماً لمسلسلات تلفازية مستوحاة من التراث العربي.

وقد صدرت روايته " أعدائي " عام ٢٠٠٠. ويعود زمنها الروائي إلى فترة الحرب العالمية الأولى، ١٩١٤-١٩١٨، ولخص الكاتب فكرتها بما أوجزه على الصفحة الأخيرة –الغلاف– حين كتب عن الرواية:

هذه رواية تنبض بأحداث وتفاصيل فترة الحكم العثماني لحظة انهياره، وكذلك أصداء التحول الخطير على أبواب الحرب العالمية الأولى. والأبطال هم جمال باشا وعشيقته اليهودية سارة وحولهما رجال أجلاف وجواسيس وضابط مغامرون وجنود هائمون على وجوههم يسعون إلى دفع العرب الذين يعيشون مرارة نوستولوجيا الماضي، إلى خارج أرضهم وتاريخهم وعصرهم.

ثمة صراع عنيف بين قوميات وعقليات ومشارب وأهواء وأنظمة حياة. وكذلك بين شبكات تجسس كلها تسعى إلى تقطيع أوصال الدولة العثمانية أو الرجل المريض. إنها أيام حرجة تداخلت فيها رغبات التحرر بالنوايا الاستعمارية ببداية التمهيد لقيام الكيان الصهيوني، ما يجعلنا نقترب جداً من الفترة الحرجة التي شهدت ولادة الشرق الأوسط ".

وكما يلاحظ، فإن الزمن الروائي تمحور حول فترة حرجة آلت إلى غياب إمبراطورية، وإلى نشوء استعمار جديد في منطقة بلاد الشام، حيث يتحرك الشخوص ويتصارعون.

الزمن الروائي، إذن، زمن ملتبس، فثمة عهد في طريقه إلى الزوال، وثمة عهد

في طريقه إلى التشكل. ويبدو أن سؤال الذات في تلك الفترة كان سؤالاً ملحاً وهاجساً كبيراً، وهذا ما تبرزه الرواية. ويبدو أيضاً أن سؤال الذات والآخر، أو " مصيدة الأسماء والهويات أو شروحات الأنا واختراقات الآخر " على رأي على حرب في كتابه " الأختام الأصولية والشعائر التقدمية: مصائر المشروع الثقافي العربي "(٢٠٠١)، يبدو أن سؤال الذات والآخر يلح على ممدوح عدوان نفسه، بالقدر الذي يلح فيه على ذهن بعض شخوصه، وبخاصة عارف إبراهيم وابنه إبراهيم، وبالقدر الذي يلح فيه على ذهن علي حرب وآخرين من المثقفين العرب في العقود الأخيرة.

ولربما يسأل المرء نفسه: من هي الذات ومن هو الآخر في تلك الفترة؟ وما الأسس التي يمكن الاعتماد عليها لتحديد هوية الذات وهوية الآخر؟ هل يعتمد المعيار اللغوي لتحديد هوية كل طرف؟ أم هل يعتمد المعيار الجغرافي؟ أم هل يعتمد الدين؟ أم هل يعتمد العرق؟

إذا اعتمدنا المعيار اللغوي، فلن يشكل سكان الدولة العثمانية ذاتاً واحدة؟ فالأتراك يتكلمون التركية، والعرب يتكلمون العربية، ولم ينجح الأتراك في تتريك العرب لتغدو لغة الطرفين واحدة. اعتماداً على اللغة، إذن، نحن أمام ذات وآخر. إن آخر من يتكلم العربية هو من يتكلم غيرها، وهكذا يغدو التركي آخر العربي، كما يغدو العربي آخر التركي.

وإذا اعتمدنا المعيار الجغرافي، فلسوف نذهب إلى أن كل مواطن عثماني، بغض النظر عن لغته ودينه وعرقه، يدرج ضمن الذات. وآخره، هنا، هو من ينتمي إلى مكان يقع خارج حدود الدولة العثمانية.

وإذا ما اعتمدنا الدين، فإن الدولة العثمانية كانت تضم مسلمين ومسيحيين ويهوداً. وهكذا يغدو الإسلام مرجع المسلمين، والمسيحية مرجع المسيحيين، واليهودية مرجع اليهود. وتتحدد الذات اعتماداً على الكتب الدينية لكل جماعة دينية.

وإذا ما اعتمدنا العرق، أساساً لسؤال الذات، فإن الدولة العثمانية كانت تضم أفراداً ينتمون إلى عرقيات متعددة. ثمة عرب، وثمة أتراك وثمة يهود قدموا من أوروبا وغدوا مواطنين عثمانيين.

ولا أريد أن أطيل في الخوض في هذا الجانب الذي أشبعه الدارسون بحثاً، إذ مرماي هو سؤال الذات في رواية " أعدائي " وهو سؤال يبدو فيها ملحاً، إذ أن بعض

شخوص الرواية يتساءلون عن هويتهم وانتمائهم، وتفصح لنا بعض فقرات في الرواية عن هذا.

الشخصية العربية المحورية في الرواية هي عارف إبراهيم، وهذا ضابط في الدولة العثمانية، يخلص لها وينتمي إليها ويكون ولاؤه لها كبيراً. لعارف هذا ابن يذهب إلى الشام لكي يتعلم فيها، وهناك يتعرف على التيارات القومية الصاعدة، ويعجب بطروحاتها، وهكذا لا يكون ولاؤه للدولة العثمانية، وإنما للحركة العربية القومية الصاعدة.

يلتقي الأب وابنه في دمشق، في فترة إقدام جمال باشا على إعدام الضباط العرب الأحرار، وهناك يدور بينهما الحوار التالي: [سأنقل الفقرة كاملة، ومن خلالها يتضح الحوار].

"– يستحقون

انتفض إبراهيم لكنه لم يقل شيئاً. وأحب عارف أن يوضح موقفه الذي بدا للولد قاسياً: دولة في حرب. أهذا وقت المشاغبات؟ أليس من العيب أن يتصلوا بفرنسا.

– ليسوا كلهم ممن اتصلوا بفرنسا؟

– الذي لم يتصل لن يعدم. أما الآخرون فيجب أن يُعدموا. أنا كنت هنا رئيس شرطة العدلية، أعرف أن معظم مسيحيي لبنان مع فرنسا ويتمنونها أن تأتي اليوم قبل بكرة.

قال إبراهيم: مع من نحن؟

استغرب عارف هذا السؤال، واستغرب أن يستمر الولد في المجادلة، لكنه أجاب وبقوة تمنع الاستمرار: نحن؟ ألا تعرف مع من نحن؟ نحن مع الدولة العلية؟

- الأتراك؟
- لا. الإسلام؟
- إذا كنا نرى مصلحتنا مع الأتراك لأنهم إسلام، فمن حق غير المسلم أن يرى مصلحته مع طرف آخر غير مسلم. لماذا نستغرب أن يفكر المسيحيون الخائفون منا بفرنسا أو غيرها؟
- وما الحل في رأيك؟

قالها عارف باستخفاف. لكن إبراهيم أجاب بجدية: الحل يقدمة الأتراك. يتصرفون على أنهم أتراك وليس على أنهم إسلام. وهذا هو الحل. نحن يجب أن نتصرف بصفتنا عرباً، وليعبد كل ربه كما يشاء؛ المسيحي والمسلم واليهودي ".(ص٧٥).

وكما يلاحظ، فإن سؤال الذات، هنا، يؤرق الأب وابنه معاً، وكما يلاحظ أيضاً فإن كل واحد من هذين ينتمي إلى عالم يختلف عن عالم الآخر. ينتمي الأب إلى الدولة العثمانية لأنه يرى فيها دولة إسلامية، ويكون ولاؤه الأول للإسلام. ويرى الثاني أن الدين وحده ليس معياراً كافياً لتحديد هوية الذات، وإذا كان هذا كذلك، فمن حق المواطن المسيحي أن ينتمي إلى فرنسا، وأن يتصل بها، وعليه فعلى الدولة العثمانية ألا تعدم من اتصل بفرنسا، من المسيحيين. ويذهب الابن إلى أن الذات تتحدد اعتماداً على أساس المعيار الإثني: العرق. وهكذا فثمة أتراك وثمة عرب، وعلى الأولين أن يتصرفوا على أنهم أتراك، لا على أنهم مسلمون، وعلى العرب أن يتصرفوا على أنهم عرب، لا على أنه مسلمون، وأما الدين فللّه وحده، وهكذا يعبد كل ربه كما يشاء. ويصر إبراهيم على هذا، وله في ذلك، من الواقع، ما يدعم رأيه. وهذا ما يتضح من الخطاب التالي الذي يرد على لسانه، وهو ينظر فيما هي عليه أحوال الدولة العثمانية. يخاطب إبراهيم أباه قائلاً:

" لم يبق أمامنا إلا أن نفكر أننا عرب يجب أن نحمي هذه الأرض من الإنجليز واليهود والأتراك. والله العظيم نحس كأننا دائخون لا نفهم ما يجري. يا ليتها كانت حرباً صليبية. كنا فهمناها. مسيحيون ضد إسلام. أوروبيون ضد مشرقيين. كانت سهلة. ولكن مسلمون وإنجليز وفرنسيون يهاجموننا، ومسلمون وألمان يدافعون عنا. عرب في الجيش الإنجليزي وفي جيش الشريف يهاجموننا. وعرب في الجيش العثماني يقاومونهم خليفة المسلمين في اسطمبول يعلن الجهاد المقدس باسم الإسلام. والشريف حسين سليل الرسول يعلن الجهاد ضد العثمانيين الكفرة. حتى اليهود لم نعد نستطيع أن نفهمهم. يهود يتبرعون للجيش العثماني ويدعون إلى التطوع فيه. ويهود يتجسسون لصالح الإنجليز ضد العثمانيين. يهود يحتالون لسرقة الأراضي ويهجرون سكانها العرب، ليقيموا فوقها مستوطنات تتحول إلى ملاجئ للعرب الهاربين من الأتراك. إحك. لماذا لا تحكي؟ "(ص٣٤٠).

لقد توصل الابن إلى أن القومية هي جواب سؤال الذات، ولكن الواقع لم يشف غليله، إذ سرعان ما رأى أن العرب عربان، وأن المسليمن نوعان، وأن اليهود يهودان وأن الأوروبيين قسمان.

ما الحل إذن؟

كما ذكرت، فإن الزمن الذي تجري فيه أحداث الرواية، كان زمناً مضطرباً يمور بالأحداث الجسام والتحولات الكبيرة، وقد ترك ذلك أثره على شخوص الرواية. كان عارف إبراهيم ينتمي إلى الدولة العثمانية باعتبارها دولة إسلامية، وهكذا كان ولاؤه للإسلام، وكان هذا جوابه على سؤال الذات الذي لم يؤرقه كما أرق ابنه. ولكنّ ما آلت إليه الأمور جعله يفكر ملياً، وهكذا غدا سؤال الذات يؤرقه، وهكذا أخذ يعيد النظر في ولائه.

في حوار يتم بين عارف وبين اليهودي (ألتر ليفي) نقرأ الفقرة التالية الدالة:

" وتقول لي: عينك بنت عينك: أنتم همج. وتستشهد لي بما يفعله الأتراك. صل على النبي يا ابن الحلال. أنت ترانا الآن والزبل يطمنا. ترانا بعد أن لعن العصملية أفطاسنا. بعد أن اذلونا وجوعونا وقسرونا للتخلي عن لغتنا وقيمنا ومبادئنا.- والله معك حق يا ابني إبراهيم - وتركونا ملاحقين بالجوع والمرض والجهل والفقر والتعتير. حتى صار الإنسان يتخلى عن دينه وعرضه وشرفه وأرضه ووطنه. كأنك لا تعرف كيف كنا قبل أن يجيء هؤلاء الأنجاس. مالفائدة؟ سأناقشك الآن؟ برقبتي أنت تعرف هذا أكثر مني "(ص٤٨٠).

هنا تكشف الذات عن مكوناتها، ولا تعود تنتمي إلى الدولة العثمانية على الرغم من أنها دولة إسلامية. هنا تتبنى الذات طروحات جديدة، ويوافق الأبُ ابنه على رأيه. لا يرد العربي، في نهاية الحكم العثماني، نفسه منتمياً إلى هذا الحكم الذي انتمى إليه. إنه ينتمي إلى الماضي العربي المجيد، يوم كان الخليفة عربياً، لا يوم غدا مسلماً تركياً، وإن كان انتمى إلى الخليفة المسلم التركي يوم كان هذا قوياً.

كانت الفترة فترة التباس هويات، لأن بعض الأتراك كانوا يلجأون إلى إنشاء دولة تركية حديثة، ولأن بعض العرب كانوا يحاولون تأسيس دولة عربية، ولأن اليهود أرادوا إنشاء وطن خاص بهم.

ونحن في الرواية أمام عربي مسلم ينتمي للدولة العثمانية يطارد يهودياً يعيش في الدولة نفسها، ولكنه يعمل على تحقيق المشروع الصهيوني: إنشاء دولة لليهود في فلسطين. ويرى العربي أن هذه أراضٍ إسلامية. ثمة صراع على أرض، وثمة طرف لا يريد أن يكون ولاؤه للدولة العثمانية، وإنما لديانته والشعب الذي يؤمن بهذه الديانة، وحين يخاطب العربي اليهودي حول هذا، يسأله عن الحل؟ وفي أثناء تقديمه الإجابة، يبرز سؤال الذات من جديد. لنقرأ ما يرد على لسان عارف وهو يخاطب (ألتر ليفي):

" وما الحل؟ إما أن يظل اليهود معزولين في الغيتو، إذا ظلوا ضعفاء، فيضمنون عدم اختلاطهم بغيرهم، ويزداد الغيتو انغلاقاً إذا كان داخل المجتمعات الإسلامية لأنه سيصير هناك التباس هويات من خلال تشابه مواعين الزلم. وإما أن يصير اليهود أقوياء فيقتلون كل مسلم في الدنيا. يعني على حسب خرافيتك هذه لا عدو لكم إلا نحن. طيب. قبلت. ولذلك، أو بدون ذلك، أنا اعتبرك عدوي وعدو شعبي وعدو ديني ثم عدو جنسي البشري كله، الذي ترى نفسك أفضل منه. وترى أنك ستنقله من الهمجية إلى الحضارة ".(ص٤٨٠).

هنا ثمة إشارة إلى معيار آخر يمكن من خلاله التمييز بين البشر، وهو تشابه مواعين الزلم "، وهذه إشاره إلى الطقوس والشعائر الدينية. وإذا ما اعتمدنا هذا المعيار تصبح الذات المسلمة والذات اليهودية واحدة، ويصبح آخرها كل من لا يتشابه في ماعونه مع مواعين زلم أبناء هاتين الديانتين. وإذا ما اعتمدنا الدين للتمييز بين الأفراد، يغدو هناك التباس هويات، إذ كيف سنميز بين المسلم واليهودي في هذا الجانب.

مرايا الآخر:

الرواية التي تحفل بنماذج بشرية من مواطني الدولة العثمانية، تحفل ايضاً بنماذج بشرية أوروبية تقيم في حدود الدولة، تارة تتجسد هذه من خلال شخصيات لها أسماؤها، وطوراً من خلال إشارة إلى أفراد ومجموعات إشارة إجمالية. ولا يلحظ المرء، وهو يقرأ حواراً ما يدور بين مواطني الدولة العثمانية، إلى أن هؤلاء ينتمون فيما بينهم إلى دولة تضم مواطنيها إلا نادراً، وهو ما يرد على لسان جمال باشا الذي

يرى أن اليهود في الدولة هم مواطنوها. فحين يرى هؤلاء أنهم يهود لا عرب " نحن يهود يا باشا، ولسنا عرباً "، قال لهم: " أنتم عثمانيون "(ص٢٢٣). وهكذا يغدو اليهود آخر العرب، والأتراك آخر العرب، كما يغدو الإنجليز والفرنسيون والألمان آخر الدولة العثمانية، وآخر العرب ... الخ. ويغدو كل قوم، بل وكل ملة آخر الأنا المتكلمة، وليست الدولة العثمانية سوى سلطة سياسية لا يشعر كثير من مواطنيها بالانتماء إليها. ويكتشف المرء، وهو يقرأ الرواية، أن الضمير في جملة " أعدائي " التي اختارها المؤلف عنواناً للرواية، لا تعود إلى مواطني الدولة العثمانية كلهم – أي ليس كل واحد من هؤلاء ينطق بها ليعبر عن أعداء الدولة العثمانية. وهكذا لا يغدو الغرب عدواً، بل ولا يغدو طرفا من هذا الغرب عدواً فقط. يتحدد أعداء إبراهيم بن عارف الإبراهيم، وهو مواطن من نابلس، بالتالي، كما يشير قول السارد:

" وفي الوقت نفسه يتمنى أن يتناول سلاحاً ويخرج به. ويبدأ بإطلاق النار على كل من يصادفه من الأعداء: العثمانيين والخونة والعملاء والدرك، من باب السجن حتى الباب العالي في اسطمبول ".(ص٢١٣)

ويحدده عارف الإبراهيم، وهو يخاطب اليهودي (ألتر ليفي) أعداءه باليهود:

" أنا أعتبرك عدوي وعدو شعبي وعدو ديني ثم عدو جنسي البشري كله الذي ترى نفسك أفضل منه، وترى أنك ستنقله من الهمجية إلى الحضارة "(ص٤٨٠).

فكيف كان ينظر كل طرف من هؤلاء إلى الآخر؟

لقد عالجت صورة اليهود في الرواية بالتفصيل (ندوة جامعة دمشق ٢٠٠٢/ الشعراء(رام الله) ع ٢١، صيف ٢٠٠٣)، ولا أرى ضرورة للتكرار.

يبدو الأتراك في الرواية حاضرين من خلال حكامهم (جمال باشا والسلطان عبد الحميد) ومن خلال الإشارة إلى ضباط جيشهم وأفراده. يبدو جمال باشا سفاحاً وزير نساء، وهذه هي الصورة التي تتكرر له، على أية حال، في كثير من الروايات العربية وكتب التاريخ العربي، مثل رواية " الرغيف " لتوفيق يوسف عواد، ورواية " الزوبعة " لزياد قاسم. ويختلف الموقف من السلطان عبد الحميد، ففي حين يذمه الاتحاديون وجمال باشا، يرى فيه بعض العرب سلطاناً حاول أن يحافظ على أرض فلسطين وألا يفرط بها، مهما بلغ الثمن الذي سيدفع له فيها. بل ولقد دفع ثمناً باهظاً جراء موقفه هذا.(ص٩٤).

والضباط الأتراك، إلا ما ندر، يبدون قابلين للرشوة، يخضعون لجمال باشا، وهم

بدورهم يُخضعون لهم من هم أدنى منهم مرتبة. ولا يطالعنا من النماذج الإيجابية إلا أقلها، وهذا ما يتمثل في شخصية جواد أتلخان الذي يثمنه عارف الإبراهيم تثميناً عالياً. بل إنه، في الرواية، يحاول مقاومة الفساد وتسلط المنظمات الصهيونية. ويقف على النقيض منه جواد أدهـم الذي، مقابل نومه مع امرأة، يسلم أسرار الجيش العثماني كلها، ويكون مسؤولاً عن هزيمته في قطاع ما من الجبهة، وينتهي به الأمر إلى الانتحار. يبدو جواد هذا ذا شاربين تركيين، مزهواً كالطاووس، متعالياً. (ص٢٧٢- ص٢٧٥).

الأتراك ممثلون في جمال باشا وأمثاله من الضباط، مثل جواد أدهم، لا جواد أتلخان، يبدون مغررين يتعالون على الآخرين. يبدو جمال باشا سليط اللسان، ويحتقر العرب، ويصف اليهود بالبخل. لنر موقفه التالي من العرب:

" حين أريهم العين الحمراء سيطيعونني كالكلاب. كم ظل الشريف متردداً في إرسال الجيش؟ حتى إنه كان يريد أن يساومني عليه. هاهو الآن يرسله حين رأى الحزم والبطش ".(ص١٨١).

العرب في نظر جمال باشا لا يفهمون إلا لغة القوة. بل والعرب أغبياء يضحك الإنجليز عليهم بسهولة (ص١٣٠).

ولكن ما الصورة التي يرسمها العرب للأتراك؟

إنها الصورة السابقة التي أشرت إليها، وهي تختلف من عربي إلى عربي، حسب الموقف الفكري والوعي السياسي. يتصادق عارف الإبراهيم مع جواد أتلخان ويثمن مواقف السلطان عبد الحميد، ولكن ابنه يقف ضد الأتراك الذين يحتقرون العرب، ويرى فيهم ظلاماً ومتسلطين.

ربما يجدر هنا الإشارة إلى موقف اليهود من الأتراك؟

يصادق اليهود الأتراك، وبخاصة قادتهم ومنهم جمال باشا، ويتوددون لهم، وتقترب اليهوديات من الحاكم، لا لشخصه ووسامته، وإنما لتحقيق الأهداف السياسية لهذا الفصيل الصهيوني أو ذاك. ولكن الأتراك مرتشون وأغبياء وحمقى. يتضح ذلك من خلال مغزى تصرفات الأشخاص أو من خلال نعوت تتفوه بها بعض الشخصيات.

يتصرف (ألتر ليفي) على هواه. يصول ويجول في الدولة، وكأن لا دولة. نقرأ في بداية الرواية عن تمثيله دور ضابط عثماني يتحرك دون أن يعرف أحد أنه جاسوس، ولمجرد ارتدائه بدلة ضابط يطيعه الآخرون طاعة عمياء، حتى دون التأكد من هويته. وفي موطن ما يبدي رأيه في الأتراك:

" وكيف أشتغل شغلي معهم لولا أنهم أغبياء؟ تصوري أنني تبرعت لحملة السويس بكمية من الأدوية لكي أكسب ود الباشا وصداقته "(ص٣٥).

" تعرفين ما هذه الأدوية؟ إنها مكومة عندي في المستودعات منذ سنوات. انتهت فاعليتها وصلاحيتها، وبينها أدوية نسائية لأمراض نسائية. ومع ذلك كانوا ممنونين. وأرسلوها كلها إلى الجبهة. أدوية نسائية إلى الجبهة. تصوري ".(ص٣٦)

خبث يهودي أو ذكاء يهودي، مقابل غباء الأتراك وجهلهم.

تتكرر صورة أخرى يرسمها العرب واليهود للأتراك، وهي عدم اهتمامهم بالبيئة، وتحويل الأخضر إلى يابس، والجنة إلى صحراء. تكررت هذه في الروايات العربية التي اشرت إليها، وتتكرر هنا أيضاً فحين تعود سارة من اسطمبول إلى فلسطين تتساءل:

" أهذا ما تبقى من الجنة ؟ "(ص٤٣).

ويكمل السارد:

" في طريقها من اسطمبول إلى هنا كانت قد مرت في أمكنة ومدن عديدة: من حلب إلى اللاذقية فبيروت فدمشق فالقدس. وكانت قد رأت آلاف الجائعين والمشردين والموتى في الطرقات. لقد بكت لدى رؤيتها من يأكلون قشور الفاكهة أو يقضمون أعشاب البر. رأت قرى يهدمها الجنود وحين سألت عن السبب قيل لها إن الجيش في حاجة إلى الخشب في أسقف البيوت من أجل سكة الحديد. أسقف البيوت ! "(ص٤٣).

مرآة الألمان:

يبرز حضور الألمان في الرواية من خلال ذكرهم ذكراً إجمالياً، ومن خلال

تجسيدهم في نماذج فردية. يعتقد الأتراك أن الألمان سيساعدونهم على جبهة الحرب، ولكنهم بدلاً من ذلك يشترون القمح ويهربونه إلى أوروبا. إنهم أولاد كلب (ص٢٦)، والألمان في نظر اليهود، مخادعون (ص٥١)، وهم لا ينفع معهم المال دائماً، وهكذا لا ينجح معهم سلاح اليهود (ص٦٦)، وإذا كانت النسوان مفتاح الجميع، كما يقول اليهودي نعمان بالكند، إذ العربيات شهوة الأجانب، واليهوديات شهوة الأتراك، فإن الألمان شغوفون بالبيرة، ولذلك لا بد من الدخول إلى قلوبهم من خلال إغراقهم بها.(ص٦٧).

والألمان في نظر نهال حامد، – وهي سورية من حلب يقتل زوجها الضابط حسام فتقرر الانتقام له ومساعدة الدولة العثمانية وتسخر جسدها لخدمة أهدافها – الألمان في نظرها مثل الأوروبيين. إنها تتساءل ماذا يريد هؤلاء الذين يفترض أنهم حلفاء للأتراك:

" أم أنهم مثل غيرهم: أوروبيون يتعاملون مع هذه البلاد وكأنها مرتع لهم ". ويضيف السارد مفصحاً عن رأيها فيهم:

" أحست من خلال تجاربها مع هؤلاء الأوروبيين أنهم يرون رجال البلاد كالدواب، ونساءها كقطع الخنازيز. المرأة الجميلة النظيفة فقط، والتي تعرف أصول تعاملهم وتتقن تفاصيل لهوهم من خلال رقص وسماع موسيقى وحديث عن الأدب، هي شهرزاد التي تسكن أحلامهم. وكل أوروبي يأتي إلى هذه البلاد، وأياً كان ما يفعله، يحلم أن يلتقي بهذه الشهرزاد، وإلا كانت مهمته ناقصة. ولن يعود بقصة مثيرة تشبع غروره وفضول من هم حوله هناك "(ص٩٥).

وحين تحاول أن تلتقي بهم من خلال توظيف جسدها، يقول لها الضابط عبد السلام: " هؤلاء الألمان أصلاً لا يروننا بشراً "(ص٩٧).

ويتجسد الألمان من خلال شـــخصيات لها أســـماؤها وملامحها. غونتر وآنا ليســتر جاســوســان ألمانيان في الدولة العثمانية. يبدو غونتر هذا، عدا الجاســوســية، زير نساء يشتهي الأجنبيات، بل إنه خبير بهن وبنظراتهن. ولكنه، وهو الجاسوس، يقع ضحيتها، فتستدرجه نهال، وتسكره وتضع له الملح في الخمر، وتكتشف أنه يمتلك جهاز تنصت، وأن هذا الجهاز يلتقط مكالمات الباشا كلها. الألماني هنا يشرب الخمر ويشتهي النساء ويتجسس.

ولا تختلف آنا ليستر الألمانية عنه. تتودد لجمال باشا وتحاول الاقتراب منه، لا عشقاً

لجماله، وإنما خدمة لبلادها. وجمال باشا يرى في الألمان أرذل من الفرنسيين والإنجليز.

آنا ليستر ألمانية مثقفة وذكية، وهي تمارس أحابيل الساسة وألعابهم. حين تكون بصحبة الضابط العربي عبد السلام تخبره أنها ودولتها حلفاء للعرب، لا حلفاء للأتراك.(ص١١٧). وهي تمارس أيضاً مكر بعض النسوة، فحين ينشغل عنها رجل بامرأة تنسحب وتبحث عن رجل غيره، وحين تعلم أن جمال باشا يفارض الإنجليز، تتهمه بخيانة الألمان.

ومثل (غونتر)، هناك الضابطُ الألمانيُ الذي يتودد إلى اليهودية سارة، يبوح هذا لها، أمام جمالها، بأسراره العسكرية. إنه ضابط شهواني لا يخلص لمهنته قدر إخلاصه لعشقه للجمال.(ص٣٤٣).

مرآة الفرنسيين:

الألمان جزء من الأوروبيين. إنهم مثلهم في إخلاصهم لبلادهم والعمل لصالحها، وإن كان بينهم وبين بقية الأوروبيين تناحر. وإن كانت الرواية تخلو من بروز نماذج فرنسية إلاّ أنها تبرز لنا صورة لهؤلاء.

يمارس الفرنسيون سلوكاً مزدوجاً، وهم لا يساعدون العرب وبفتحون المدارس في بلادهم حباً في تعليمهم.

" هذه المدارس ليست هنا من أجل العلم فقط. بل إنها تهدف إلى شيئين اساسيين وهما متناقضان جداً لمن يتعمق فيهما. من جهة يريدون نشر الدين المسيحي، ومن جهة أخرى يريدون من الشبان المسلمين التمرد ضد دينهم بحجة التقدم والتنوير .. "(ص٢٠٩).

لماذا؟ لأنهم ضد جذور انتماء الشعب، وأول جذوره هو الإسلام. لا بصفته ديناً بل بصفته هوية محلية ووطنية. ويصدر هذا الكلام عن مسيحي عربي، لا عن مسلم عربي. ويلحظ هذا أن هؤلاء الفرنسيين الذين يشجعون العربية في بلاد الشام، هم الذين يحاربونها في المغرب العربي، إن مصالح الأوروبيين هي ما يحركهم، لا أكثر ولا أقل. والفرنسيون هنا مستعمرون ليس أكثر.

أنجزت الجمعة والسبت ١١و١٢/٧/٢٠٠٣